

مقالة

قمة إسطنبول: دليلك لكشف الاستحمار

أحمد حسن*

«ما فعله هذا البيان يوم الأربعاء هو إظهار التوافق الدولي الحقيقي حول هذا الموضوع (القدس)، و(إظهار مدى) المعارضة والنقد (للولايات المتحدة)».

من لقاء للسفير الفلسطيني في واشنطن مع برنامج «أب فرونت» على الجزيرة الإنكليزية» (8 ديسمبر/ كانون الأول 2017).

لننسى اللحظة كيف حاول السفير الفلسطيني في واشنطن الإيحاء بأن قرار ترامب (اعتبار القدس عاصمة للكيان الصهيوني) هو في الحقيقة «انتصار» للفلسطينيين، قبل أن يدفعه المحاور إلى الخجل والتراجع، ونسأل: هل تابعت مؤتمر قمة منظمة التعاون الإسلامي الطارئ الخاص بالقدس؟ هل انطلى عليك الأداء المسرحي لعباس وإردوغان تحديداً؟ هل صدقتهم، ولو قليلاً؟ حسناً، لدى اختصاصي علم النفس الاجتماعي تشخيص دقيق لحالتك. للأسف: لقد جرى استحمارك.

و«الاستحمار» كما الاستعمار (وهو من الاستعمار أيضاً)، يقول علي شريعتي صاحب المفهوم، نوعان أيضاً، قديم وجديد/ حديث. والاستحمار الجديد/ الحديث، بعكس القديم، أصبح «معززاً بالعلم، بالإذاعة والتلفزيون، بالترقية والتعليم وجميع أشكال وسائل الإعلام، بالمعارض ويعلم النفس الحديث، بعلم الاجتماع، ويعلم النفس التربوي! صار فنناً دقيقاً مجهزاً بالعلم، ومن هنا تصعب معرفته لصعوبته ودقته» (النباهة والاستحمار، ص: 44). أي إن الاستحمار، كمفهوم، ينتمي إلى نفس فئة مفاهيم «الهيمنة» و«الوعي الزائف»، و«الأيديولوجيا»، والدعاية، وبالتالي هو غير منفصل عن السياق السياسي والاجتماعي (الطبقي) وحتى التاريخي للصراع الدائر، ويحدث بين الطبقات وعبر الطبقات، كما بين المستعمر والمستعمر. والاستحمار، كما هو عند شريعتي، نقيض النباهة الفردية (إدراك الذات) والنباهة الاجتماعية (الوعي السياسي وشعور الفرد بمرحلة المصير التاريخي). والعدو، بكل أشكاله يعمل، كما يقول شريعتي، على سلبنا الوعي الأول والوعي الثاني (ولا يعوضنا عنهما إلا جهلاً وفقراً وذللاً». لذلك، فأي «دعوة»، يقول شريعتي، أو «كلام أو تقدم، أي حضارة أو ثقافة أو أي قدرة تكون خارجة عن إطار هاتين الدرايتين، ليست إلا تخديراً للأفكار» (ص: 43). وهكذا يجري تسخير الإنسان كما يسخر الحمار.

لهذا، فحين قال عباس، مثلاً، في دعوته الطبيعية للمسلمين لزيارة القدس تحت الاحتلال، إن «زيارة السجين ليست كزيارة السجنان» كان حقاً يمارس علينا تمريناً وقحاً في الاستحمار. وحين طالب «دول العالم بمراجعة اعترافها بدولة إسرائيل ما دامت تصرّ على مخالفة قواعد القانون الدولي، وخرق جميع القرارات الدولية منذ إنشائها عام 1948» فيما هو لم يهدد حتى بسحب اعتراف «منظمة التحرير» بالكيان الصهيوني، كان هذا، أيضاً، محاولة أخرى في الاستحمار. وكذلك الأمر حين قال: «نقول للإسرائيليين إنه في حال استمرار الانتهاكات، فإننا غير ملتزمين أي اتفاق بيننا وبينهم»، أو حين طالب بـ«دعم مساعي دولة فلسطين في الانضمام إلى جميع المنظمات والمعاهدات الدولية باعتبارها حقاً طبيعياً لها، وبهدف تثبيت وجود دولة فلسطين في النظام الدولي»، فهو كان يتبع أساسيات و«ألف باء» من «دليل الاستحمار».

بكلمات أخرى، إذا كان هناك الآن منشور على صفحتك في «فيسبوك»، مثلاً، بعنوان «خطاب الرئيس عباس التاريخي في قمة منظمة التعاون الإسلامي» مع وصلة لهذا الخطاب، فأنت ببساطة

شوارع القدس، خاصة في الجمعة الأولى بعد إعلان ترامب. وليوم الجمعة قصته في القدس، إذ يجتمع الفلسطينيون القادمون من مدن الضفة والداخل والقدس نفسها، بعد فراغهم من صلاة الجمعة في المسجد الأقصى، وتبدأ هتافاتهم لتسيطر على ساحات المسجد، ثم يقررون أن ينطلقوا في مسيرة باتجاه باب العمود. سبيل بشري يكاد يجرف كل ما يعترض طريقه، بخطى موحدة تجدهم متراصين حتى باب الناظر، أحد أبواب الأقصى، لكن أمام هذا المشهد ثمة جند كثيرون، مع ذلك، ينكمشون على أنفسهم ويتشردمون في زاوية الباب ولا يحاولون اعتراض المتظاهرين.

من حالفة الحظ وكان في مقدمة المسيرة شعر كأنه ذو قوة خارقة، فالآلاف الفلسطينيين والمسلمين من جنسيات أخرى كانوا يسيرون وراءه، ما يدفعه ألا ينهزم أمام الحاجز العسكري وعشرات الجنود الذين أغلقوا طريق الواد الواصلة بين باب العمود والأقصى، ليقرر بذلك اختراق الحاجز مهما كلف الثمن.

في المقابل، يتراص جنود الاحتلال أكثر وأكثر كلما اقتربت المسيرة، ومن يشاهد وقفاتهم يعتقد أن نملة لا تستطيع اختراقهم، لكن سرعان ما يتهاوى هذا الظن، عندما تصير المسافة صفراً بينهم وبين المتظاهرين. هنا يبدأ العراك الذي لا يثنى المتظاهرين عن الوصول إلى باب العمود، لبدأ سيناريو الاحتشاد والهتاف والاعتقال والقمع المجنون... في مشهد مقدسي يومي، الاختلاف الوحيد فيه أن كل يوم ثمة معتقلين آخرين يستبدلون مكان من خرجوا في الأمس، فيما يزيد الاحتلال عدد جنوده وحواجزه بقدر ما يستطيع.

الجنود، لكن الحلقات العسكرية التي تلتف حوله وتتوسع شيئاً فشيئاً تمنعهم من ذلك. في هذه اللحظة، يرفرف علم فلسطيني آخر من جديد، وتعاد الكرة، وتزداد الاعتقالات... إلى أن تطاول المتظاهرين.

بجانب باب العمود، الذي تحوّل إلى أهم الباحت رمزية في التظاهرات، ثمة شارع السلطان سليمان الذي يحده من الشمال. وهناك، لا يقتصر تفريق المتظاهرين على قمعهم وتهديدهم بالاعتقال، إذ تدخل فرقة الخيالة التابعة لشرطة الاحتلال: خيول سود ذات عضلات بارزة

تحولت مسيرة باب العمود إلى حالة يومية لدى أهل القدس

بطول لا يقل عن مترين ونصف متر، إذا اقتربت منك تشعر كأنها لم تعد تلك الحيوانات اللطيفة التي تُربى وبالفها الإنسان، فهي تتربص بالمتظاهرين وتحقد عليهم حقداً ربما كان يعادل حقد الإسرائيليين، وهي لا ترعبهم ونهاجمهم فقط، بل تغرقهم بفضلاتها، ربما لترديد ألمهم النفسي.

كل ما سبق صار مشهداً يومياً في المدينة المحتلة، منذ اعتلى الرئيس الأميركي، دونالد ترامب، منصبه وألقى خطابه الذي قال فيه: «حان الوقت لأن نتعرف بالقدس عاصمة لإسرائيل»، في السادس من كانون الأول الجاري، لتنتفض من بعدها

مصاب بحالة استحمار مستعصية مع سبق الإصرار والترصد، و«عظم الله أجر أهلك وشعبك فيك، وعوضهم عنك خير منك». لكن هناك، للحقيقة، أيضاً، عبارات لافتة في كلمة عباس يصعب جداً تصنيفها ضمن فئة «الاستحمار»، أو حتى ضمن فئة «قمة الاستحمار». فحين قال عباس: «ولا يفوتني الإشادة بمواقف المملكة العربية السعودية الثابتة إلى جانب شعبنا وقضيتنا، وهذا ما أكد عليه خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبد العزيز وولي عهده في زيارتي الأخيرة للسعودية»، فيما وسائل الإعلام تنقل في ذات الوقت هتافات المتظاهرين في الضفة الغربية وهم يشتمون ابن سلمان ويصفونه بالخائن، فهو لم يكن يستحمر. هنا دخلنا مجالاً آخر ينتمي إلى المسخرة والهزل والاستهبال، أكثر منه للاستحمار (وهذا غير مشمول في دليل كشف الاستحمار). إلا إذا كان عباس، طبعاً، يختبر منهج الاستحمار على سلمان وابن سلمان، هذه المرة. لكننا لن نعرف مدى فعالية هذا الاختبار العباسي، طبعاً، حتى يفك الله كرب الزعوط وتسمه له أميركا بالتفريد مجدداً بجواهره، فنتعرف إلى خبايا نظام بادية الظلمات.

لكن، وللإنصاف، لم يكن محمود عباس الوحيد الذي لجأ إلى استراتيجية الاستحمار هذا الأسبوع. فإذا استمعت إلى أي مسؤول فلسطيني أو عربي، أو إلى محلل أو معلق سياسي، أو حتى إلى معلق عربي يرفض قرار ترامب لأنه «انتهاك صارخ للقانون الدولي» فلقد كان يمارس عليك الاستحمار بالتأكيد. وليس هذا فقط لأن انتهاك القانون الدولي هو الرياضة الأميركية (والصهيونية) المفضلة، بل لأن في هذا التوصيف محاولة لتغطية وتزوير معنى القرار الحقيقي الذي حسم ما يسمى «قضايا الحل النهائي» بلا تفاوض، وأفرغ، بالتالي، كل عملية التفاوض من معناها. وإذا استمعت إلى تصريحات رياض المالكي، أو حنان عشراوي، أو صائب عريقات، وغيرهم، وشاهدتهم يتحدثون بغضب عن انتهاك الشرعية الدولية، وتحديداً إذا سمعتهم يهددون ويتوعدون الكيان الصهيوني وأميركا الإمبريالية بـ«الانضمام إلى المنظمات الدولية كطريق بديلة للدولة»، أو بتقديم «شكوى لمجلس الأمن ضد الولايات المتحدة»، فلقد كانوا يمارسون رياضة الاستحمار هم أيضاً. وإذا استمعت إلى مسؤول فلسطيني من تنظيمات غير حزب السلطة (غير «فتح») يتهرب من إعطاء موقف واضح وصريح حول ما قاله عباس قبل وأثناء قمة إسطنبول فهذا استحمار. وإذا شاهدت أو استمعت إلى مسؤول فتحاوي يتبرأ من مواقف السلطة بتمييزها عن مواقف حركة فتح، فعليك أن تعرف أن هذا العبقرى يستحمر عينك عينك.

لكن ملك الاستحمار بلا منازع هذا الأسبوع (وفي أغلب الأسابيع، في الحقيقة، منذ سبع سنين) كان «المتعنتر» دائماً وأبداً، خليفة «الإخوان المسلمين» وأمير الجنود الإنكشاريين، رجب طيب إردوغان. وإذا كنت ممن انطلت، وما زالت تنطلي عليهم، بهلوانيات إردوغان هذا، فأنت ضحية لنوع خاص من الاستحمار شارك فيه وبفعالية بعض الإعلام العربي، ولعبت الخطابة وفن الاستعراض وعلم النفس وعلم الاجتماع أدواراً مهمة في خداعك. ولقياس درجة استحمارك الفعلي كتمياً، أفحص كل حساباتك على وسائل التواصل الاجتماعي واحسب كم صورة ووصلة وتعليقاً لك عن «أمير المؤمنين». أما لقياس درجة استحمارك نوعياً، فأبحث في بيتك، وانظر إن كنت تعلق له (إردوغان) صورة على أحد الجدران. أما إن ثبت استحمارك كتمياً ونوعياً، فلا رجاء منك ولا أمل فيك. عظم الله أجركم.

* كاتب فلسطيني

كرس عباس حياته للتفاوض على حل الدولتين الذي لم يعد متاحاً الآن (أ ف ب)



من هنا، كشف الكاتب البريطاني أن مصادر مطلعة أخبرته بأن «السياسي» ضغط على عباس حتى لا يرأس الوفد الفلسطيني إلى إسطنبول، بهدف تقليل أهمية المؤتمر». وقال: «لمساعدته على رفض دعوته إلى إسطنبول، انتشرت أنباء زائفة تفيد بأن عباس قد أصيب بجلطة دماغية، لكن عباس تجاهل كل هذا». وفي الوقت نفسه، «استدعي الملك عبدالله إلى الرياض وطُوبى بعدم حضور قمة إسطنبول. ولم يلبث الملك عبدالله سوى بضع ساعات في الرياض، ثم غادر إلى إسطنبول». ووفق الكاتب، فقد بعث حضورهما المؤتمر رسالة إلى السعودية وأميركا «تفيد بأن اتفاق الرياض مع ترامب لا يقبله كل من الأردن وفلسطين، وتدعم الدول الإسلامية هذا القرار».

(الأخبار)

الأهم من ذلك أن «إسطنبول وضعت الأسس لإعادة اصطفااف الدول العربية، ولفقت الأنظار إلى رفض اثنين من القادة العرب المؤيدين للغرب، هما الملك الأردني عبدالله الثاني والرئيس الفلسطيني محمود عباس، لموقف حلفائهما المعتادين في واشنطن». وأوضح، في هذا المجال، أن «الملك عبدالله هو رئيس ثاني دولة عربية تعترف بإسرائيل، أمّا عباس فهو الزعيم الفلسطيني الذي كرس حياته للتفاوض على حل الدولتين، الذي لم يعد متاحاً الآن».

كذلك، أشار إلى أنه «إدراكاً لأهمية ما كان على وشك الحدوث في إسطنبول، بذلت السعودية ومصر جهوداً مُضنية لمنع عبدالله وعباس من الذهاب»، موضحاً أن «النقارير أفادت بأن عبدالله وعباس استدعيا لعقد اجتماع عاجل في القاهرة، لكن لم يلبّ الدعوة سوى عباس».

للشؤون الإسلامية إلى إسطنبول، ومنعوا تغطية الحدث عبر وسائلهم الإعلامية، وبدلاً من ذلك، أمروا ببيت قصة أخرى حول تغطية قناة الجزيرة لاحتجاجات القدس التي وصفوها بأنها كانت تحريضاً على العنف».

وينظر الكاتب البريطاني، فإن

ضغط السيسي على عباس حتى لا يرأس الوفد الفلسطيني